

الماء و ثقافته من خلال الحوليات الشنقيطية¹

د.محمد بن جدو أستاذ محاضر بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط/ موريتانيا
salimataw658@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/01/30

تاريخ القبول: 2024/12/26

تاريخ الارسال: 2024/12/12

ملخص

تستهدف هذه المقاربة تحديد و فهم ومعالجة طبيعة الثقافة المائية لدى المجتمع الموريتاني. ثمة بعد آخر من أبعاد إشكاليتنا يتعلق بإثارة الانتباه إلى ما لاحظناه من تجلى لظاهرة توجس جزء من الموريتانيين من بعض استعمالات الماء. و قد بحثنا في هذا السياق عن جذور هذه الظاهرة، و ذلك من خلال العودة إلى بعض المصادر المختصة، و إجراء بعض التحليلات.

و كأى مقاربة معرفية أخرى فقد وضعنا ظاهرتنا المدروسة في سياقها من خلال التعريف، أولاً، بمجتمع الدراسة. و عليه فقد تمت مفصلة الموضوع من خلال بعدين يعرف أولهما بهوية المجتمع الموريتاني بينما يتقصى الثاني الإشكاليات الرئيسية للمقاربة.

الكلمات المفتاح: المجتمع الموريتاني - دراسة الحوليات - الماء- الثقافة المائية

This approach aims to identify, understand and address the nature of water culture in Mauritanian society. There is another dimension to our problem linked to drawing attention to what we have observed of the phenomenon of apprehension among certain Mauritanians with regard to certain uses of water. In this context, we searched for the roots of this phenomenon, by returning to a few specialized sources, and... by carrying out analyses.

Like any other cognitive approach, we put our studied phenomenon in context by first defining the population studied. Thus, the subject was detailed through two dimensions, the first of which defines the identity of Mauritanian society, while the second explores the main issues of the approach.

Keywords: Mauritanian society - El hawliyat study - water - aquatic culture

تقديم لإشكاليات الموضوع

¹ - تحليل تسمية شنقيط في الوقت الراهن إلى الدولة المعروفة اليوم بموريتانيا.

من الملاحظ أن موريتانيا تعاني من عدة مشكلات مرتبطة بالماء. و سيبدو أن لذلك الإشكال عدة تجليات تشمل ما هو نقصا وصمة ورهبة و أوهاما.. بناء على تلك الملاحظات قمنا بصياغة و معالجة ثلاثة إشكالات مركزية يستهدف أولاها استقصاء أبرز المصادر التاريخية للبلد خلال القرن التاسع عشر، بحثا عن المعطيات المتعلقة بذكر الماء. حيث سنسعى من خلال ذلك إلى اختبار درجة وعي عينة من نخبة البلد بمشكلات مجتمعهم الصحراوي، ومدى إحساسهم بواقعهم.

أما الإشكال الثاني فيمكن القول بأنه قد برز على نحو عرضي، حيث استوقفني أثناء قيامي بتقصي مصادر المرحلة، بحثا عن المفردات المرتبطة بالماء داخل الكتابات المحلية ما يشبه صمنا، أو ذهولا من قبل كتاب تلك المصادر عن ذكر طبيعة و درجة استخدامات الناس هنا للماء خلال القرن 19م. وبطبيعة الحال فقد شكلت ندرة الحديث عن الماء وسط الصحراء أمرا مغريا لنا بالبحث في مغزاه، وهو ما حاولنا القيام به هنا.

هناك بعد ثالث لإشكاليتنا البحثية يتعلق بالبحث في أصول ما نلاحظه من وساوس لدى غالبية مجتمع الدراسة من بعض استعمالات الماء. ولهذا فقد استهدفت في هذه المقاربة جمع بعض المعطيات المتعلقة بالثقافة المائية هنا، مستهدفا بذلك تقديم إضاءة عن تصورات الناس هنا عن تلك المخاوف، وامتدادات تلك الظاهرة لدى أبناء هذا المجتمع في الوقت الراهن.

و لان المعطيات المقدمة، في هذا الشأن، من قبل مدونتنا شحيحة، فقد لجأنا إلى الاستعانة ببعض الروايات الشفوية التي ما تزال الذاكرة المحلية تحتفظ بها عن تلك المعطيات والتصورات.

على مستوى أهمية الموضوع، نشير إلى أن لهذا الأخير أبعاد يتجسد أولاها في كونه كتابة تحاول تجاوز الصور المزيفة للواقع المجتمعي المدروس ومهادنته. هذا إلى جانب اشتغاله على كشف الغموض الذي يطبع أوجه الحياة الثقافية والاجتماعية بمجال الدراسة.

أما الأهمية الثانية فتتجسد في كونه عمل غير مسبوق بكتابة في نفس الموضوع في حدود علمنا. و عليه فإن الكتابة هنا ربما تكون ذات طبيعة استطلاعية لمجال لم يحظى من قبل بالدراسة. حيث تكاد تنعدم الكتابة في التاريخ الاجتماعي لهذا البلد، بينما تزداد سنة بعد أخرى الكتابة في تاريخه السياسي، بحكم توفر كم هائل من المعطيات في هذا السياق.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع مفصلته إلى مقدمة وثلاثة قضايا بحثية نقدمها على النحو التالي:

أولا: توصيف عام لمجال الدراسة

1- المجال الجغرافي لمجتمع الدراسة

تعتمد دراستنا هنا على عدة رؤى من بينها الإقرار بأهمية تأثير العامل الطبيعي/ الجغرافي على مختلف مناحي مجتمع الدراسة. لهذا سنبدأ بتقديم تعريف للمجال الذي يشكل حيز عيش المجتمع الموريتاني.

تقع بلاد شنقيط/ موريتانيا بين شمال وغرب القارة الإفريقية، حيث تحدها من جهة الشمال كل من الجزائر و المغرب، فيما تتصل من جهة الشرق والجنوب بجمهورية مالي، وتطل بجنوبها الغربي على نهر السنغال، بينما تنتهي واجهتها الغربية بالساحل الأطلسي¹.

وبطبيعة الحال فإن الحدود الحالية لهذا البلد لم تكن موجودة خلال الحقب السابقة لخضوعه للاحتلال الفرنسي. حيث يصعب تقديم تحديد دقيق لنهايات هذا المجال قبل ذلك المستجد، نظرا لغياب مفهوم الحدود لدى القوم آنذاك، و للطبيعة المتحركة لقبائل المنطقة المنخرطة في تنقل دائم بحثا عن الماء والكلأ في مجال أصيب بالتصحّر منذ أزمنة قديمة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن المجال الموريتاني في معظمه هو امتداد طبيعي للصحراء الكبرى (المجابات الكبرى)، حيث تغطي نسبة التصحر على غالبية البلاد².

أما بالنسبة للسّمات المناخية الرئيسية لهذا البلد، فتتمثل في أن هذا الأخير قد تحول إلى صحراء قاحلة على أثر التقلبات المناخية التي شهدتها المنطقة خلال الفترة الحديثة، حيث تفيد الدراسات المختصة أن فترات القحط كثيرا ما تبدأ مع نهاية فصل الربيع، وتشتد في فصل الصيف³.

من السّمات الرئيسية البادية، كذلك على سطح الأرض هنا ضعف الغطاء النباتي والطبيعة الجافة و ارتفاع درجات الحرارة. وعلى الرغم من أن مناخ موريتانيا حار وجاف، ومعظم مجالها قاحل إلا أن جنوبها يحتوي على موارد مائية هامة. حيث تشكل المياه السطحية الموسمية (البرك والمستنقعات) إحدى الظواهر الطبيعية للبلد. من الجدير بالذكر هنا أن المناطق الرطبة من المجال الموريتاني توجد بالجزء الجنوبي و الجنوب الغربي من البلاد، وهناك عادة ما تكون المياه قريبة من السطح، بينما يكون العكس في بقية البلاد⁴.

ومن الجلي هنا أن نشأة بعض الواحات والقرى (المدن) التاريخية كان نتيجة لوجود بعض ينابيع المياه هناك. وبما أن البلاد هنا تعاني منذ أزمنة قديمة من أزمة في الموارد المائية، فقد اتجه الناس هنا إلى حفر الآبار⁵.

انطلاقا من المعطيات المبينة أعلاه يتبين أن ما هو متوفر من الماء بالمجال الموريتاني لم يكن يكفي لسد حاجات الناس، وهو ما انعكس على مختلف أوجه الحياة هنا.

2- البعد الاجتماعي :

¹ - بشيري محمد الولاتي، جغرافية موريتانيا، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 1993 ، ص9.

² - Mohamed salem / Merzog.Contribution a la Connaissance et la gestion des ressources hyriques, université de Tunis ,FSHS,Thèse d3eme cycle,1987,pp 68-99.

³ - الولاتي، مرجع سبق ذكره، ص، 32-37.

⁴ - محمد محمود محمد، و حسن كي، التراث المائي في موريتانيا، ضمن مؤلف جماعي بعنوان: التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط و المغرب العربي، المركز الإقليمي للعربي للتراث العالمي، برعاية اليونسكو، الطبعة الثانية، ص 38 (توجد نسخة الكترونية من هذا النص على النت).

⁵ - المرجع السابق، ص 49 .

سنأخذ من هذا المبحث إطاراً لتقديم معطيات رئيسية حول ماهية مجتمع الدراسة. و مما يستدعيه المقام أن هناك إثباتات علمية على قدم الاستيطان البشري بالمنطقة¹. ومن هنا ينبغي التنبيه إلى أن مجال الدراسة يشكل نطاق التقاء بين شمال وغرب إفريقيا، لهذا تداخلت في تكوين مجتمعه عدة عناصر عرقية (زنجية و أمازيغية..).

ويبدو جلياً أن المجال هنا قد ظل مفتوحاً أمام التنقل بين شمال وغرب القارة الإفريقية. ولهذا فقد مر التكوين العرقي لهذا البلد بعدة أطوار. أما القبائل التي عرفت بقدوم الاستيطان به فهي قبائل السونكي والبربر (صنهاجة..)². كما يبدو أن التفاعل بين عناصر هذه التركيبة العرقية قد أنتج مكوناً عرقياً ثالثاً يمثل خليطاً هجيناً بين الزنوج والبربر.

ومما يقره الواقع والدراسات في هذا المجال، أن المجتمع الموريتاني ما يزال إلى اليوم مجتمعاً بدوياً قبلياً. من المعلوم في هذا السياق أيضاً، أن هذا المجتمع قد أنقسم تاريخياً إلى عدة طبقات لكل منها وظيفتها ومنزلتها في السلم/ الهرم الاجتماعي التقليدي.

في هذا السياق نجد أن الفئة المعروفة داخلياً بحسان (المحاربين) قد احتلت مكاناً بارزاً في البناء الاجتماعي الشنقيطي/ الموريتاني التقليدي. ومما يثير الاهتمام هنا هو تعلق/ انتساب أفراد هذه الشريحة بالنسب العربي. والواقع أن هذا التعلق ليس خاصاً بشريحة حسان، فالجميع هنا تحدوه الرغبة الجامحة في أن يكون عربياً، وقد أنشأ لذلك رواياته الخاصة به³.

إلى جانب فئة حسان نجد شريحة الزوايا التي تبوأَت هي الأخرى، في البناء الاجتماعي التقليدي مقاماً علياً. ومما هو مثبت أن القيمة الاجتماعية الرئيسية لهذه الفئة، مستمدة مما قامت به من أدوار في تعلم وتعليم المعارف الشرعية الإسلامية، ولغة العربية⁴.

ثمة مكونات اجتماعية أخرى يحمل بعضها اسم أزناكه، ولمعلمين، واكاون، ولحراطين، والأرقاء.. وهي فئات تم تسخيرها لخدمة شريحتي حسان والزوايا⁵.

تشكل المعالم المبينة في الفقرات السابقة، جزءاً من حياة البدو الرحل بالمجال المعروف اليوم بموريتانيا (بلاد شنقيط). تلك الحياة التي اتسمت بعدم الاستقرار، حيث فرضت قلة الأمطار

¹ - R.Vernet la Préhistoire de la Mauritanie introduction A la Mauritanie Edts CNTRs Paris 1979. P 45- 46

² - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة و الرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص28.

³ - تمكن العودة في هذا الشأن إلى النصوص المتعلقة بالأنساب في هذا المجال، ك صحيحة النقل في علوية ايدو علي و بكريه محمد قلي، و رسالة الروض في أنساب الحوض، الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية...

⁴ - الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق: محمد ولد باباه، منشورات بيت الحكمة، تونس 1990، ص52.

⁵ - - أحمد محفوظ مناه، ميراث السبيبة، دراسة في تاريخ الثقافة السياسية ببلاد شنقيط، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 1994، ص49.

وانعدام الموارد المائية السطحية بالبلاد، على غالبية السكان هنا التنقل والارتحال الدائم بحثاً عن الماء والكلأ.

و إذا كان الارتحال الدائم هو القاعدة التي حكمت حياة الناس هنا، خلال مرحلة ما قبل القرن العشرين، فإن الاستثناء هنا كان أيضاً موجوداً. حيث تمثل الشواهد المادية، و تتواتر روايات المصادر المختصة عن نشأة بعض المدن (القرى) حول بعض الواحات الصحراوية بالبلد¹. ومما هو جلي أن منشئي تلك المدن كانوا يهدفون إلى أن يجعلوا منها محطات عبور لقوافل التجارة الصحراوية التي ربطت خلال الفترة الوسيطة، بين شمال وغرب القارة الإفريقية.

3- البعد السياسي و الاقتصادي

سيتبين من خلال قراءة الأوضاع العامة للبلاد الموريتانية، أن الواقع البيئي قد أثر بقوة على الحياة السياسية بالبلد. حيث يبدو أن البيئة البدوية هنا قد أنتجت سياسية بسيطة وهشة. كما سيتضح لمن يتصفح وثائق فقهاء البلاد خلال القرنين 18 و 19 الميلاديين، أن مدلول أرض السبيبة² قد أصبح بمثابة الاسم الوصف والشائع لهذه البلاد.

ومما هو مؤكد أن هذا المفهوم (السبيبة) قد تم استخدامه في البداية داخل أراضي تونس و المغرب الأقصى- الجار الشمالي لموريتانيا- للتمييز بين مناطقه الخاضعة للسلطة المركزية، وتلك الخارجة عليها³. وكما هو واضح من دلالة التسمية، فإن (أرض السبيبة) هنا تعني انعدام السلطة المركزية، وسيادة الاضطراب والفوضى. وبالفعل فإن وثائق البلاد تحيل إلى مجال تصارعت فيه العديد من القبائل، على ما هو متاح من مصادر لحياة البشر هنا (الثروة الحيوانية..) وتكثفت فيه غارات النهب⁴.

يمكن القول إجمالاً أن توازن القوة بين عدد من قبائل المنطقة، ولجوء المجموعات الضعيفة إلى الدخول في حماية المجموعات الأكثر قوة، قد سمح للحياة أن تستمر وسط الفوضى.

وبما أن المقام هنا لا يتسع للحديث عن مختلف التحولات السياسية التي مرت بها البلاد، فإننا سنشير إلى أن تلك الأوضاع قد استمرت على ذلك النحو، إلى أن خضعت البلاد للاحتلال الفرنسي مع مطلع القرن العشرين⁵.

1 - المختار ولد حامدن، حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص 6.

2 - تمكن العودة، على سبيل المثال، إلى كتاب البادية للشيخ محمد المامي، توجد نسخة خطية من هذا الكتاب بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط.

3 - عبد الله العروي، من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2010، ص 111.

4 - تقدم العديد من المصادر التاريخية للبلاد (الحواليات) سرداً مكثفاً لجزء مما شهدته المنطقة من غارات النهب خلال القرنين 18 و 19 الميلاديين.

5 - أحمد محفوظ مناه، ميراث السبيبة..، م، س، ص 26 - 27

فيما يخص الواقع الاقتصادي لمجتمع الدراسة (الشناقطة) نشير إلى أن الحياة الاقتصادية هنا قد اتسمت، خلال القرون الماضية بالبساطة، إن لم يكن بالبداية. فإلى وقت قريب ظل النظام الغذائي للقوم يكاد ينحصر في ألبان ولحوم المواشي (من إبل وبقر وأغنام..).

داخل نفس الميدان نجد أن اقتصاد القوم كان مرتكزا على الرعي والغزو (غارات النهب) وتجارة القوافل. وقد استمر الأمر على هذا النحو حتى القرن 17م، حيث بدأ نمط الحياة يتغير بفعل حضور بعض منتجات التجارة الأطلسية/ الأوربية إلى المنطقة¹.

4- الجانب الثقافي

يمكننا في هذا النطاق أن نشير إلى أن الثقافة الشنقيطية قد تشكلت من خلال عدة مرجعيات وآليات، بحيث تبدو كما لو أنها مزيج من الطقوس والتصورات المستوحاة من البيئة الأيكولوجية المحلية، وتقاليدها المجموعات البدوية الصنهاجية والزنجية والعربية. ومما هو مؤكد أن الثقافة الشنقيطية لا تنحصر في الموروثات البدوية والوثنية، حيث شكل دخول الإسلام إلى المنطقة تحولا في بنية تلك الثقافة.

أما فيما يتعلق بتوقيت وصول أولى المعتقدات المربوطة بالإسلام هنا، فإن بعض مصادر المنطقة تفيد بأن سكان هذا المجال قد تعرفوا وتأثروا بالدين الإسلامي خلال القرن (8 م) ، ثم آمنوا به². ومع ذلك بقي إسلام القوم هنا مشوشا ومشوها بالجهل. ومن أجل تصحيحه وتعميقه تكونت وانطلقت حركة المرابطين من قلب الصحراء الشنقيطية/الموريتانية خلال القرن الحادي عشر الميلادي³.

ومما هو معروف في هذا النطاق، أن التدين في هذه البلاد ينبني على ثلاثة مرتكزات هي: العقيدة الأشعرية، والفقهاء المالكي، وطريقة الجنيد السالك في التصوف⁴.

هناك منعطف ثقافي آخر يتعلق باستقبال الصحراء الشنقيطية لما عرف بهجرة القبائل الحسانية- خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين- القادمة من المغرب الأقصى. تلك القبائل التي لم تلبث أن فرضت هيمنتها السياسية والثقافية (اللغوية) على معظم مناطق البلاد⁵. ولكي نبين أسباب ذلك التحول الثقافي، نشير إلى أن الحضور العربي بالمغرب الأقصى قد أحدث عملية تعريب جذرية

¹ -Ould chekh (Abdol wadoud) Nomadisme islam et pouvoir politique dans la société Maure précoloniale (XIX Siècle) Thèse pour le dictera en sociologie ; Paris V ; 1985 ; T 1 P 90

² - الخليل النحوي، بلاد شنقيط، م، س، ص30.

³ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، طبعة 1972، ص ص، 134، 135.

⁴ - الخليل النحوي، مرجع سابق، ص ص 168-181.

⁵ - المختار ابن حامدن ، حياة موريتانيا، م، س، ص 183-184.

بالمغرب، شملت اللغة والأسماء والأنساب..¹ بحيث وصل الأمر حد تنكر جزء كبير من قبائل المغرب الأمازيغية لأصولها، وانتحالها لنسب المجموعات العربية التي سادت مجال المغرب.

في هذا السياق نجد أن هجرة المجموعة المعروفة محليا ببني حسان من المغرب الأقصى إلى بلاد شنقيط، قد حملت معها عدة آليات للتفوق، مكنتها من أن تخضع سكان المجال الأخير لعملية تعريب مماثلة لما خضع له أسلاف بني حسان بالمغرب.

إجمالاً نشير إلى أن البيئة الجغرافية ذات الطبيعة الصحراوية الجافة، وما تسببت فيه من عزلة نسبية، قد أفضت إلى صهر العناصر الثقافية للأعراق المتعددة التي أقامت بهذا المجال منذ أزمنة قديمة، جاعلة لهذا المجتمع ما يميزه في ملبسه (الملحفة، الدراعة) ولهجته (الحسانية) وموسيقاه وهواجسه اتجاه الماء..

ثانياً: الماء من خلال كتابة الخاصة و ثقافة العامة

سيتجه تركيزنا في هذا الجزء من المقال إلى عدة تحريات معرفية، يتصدرها البحث داخل نصوص الحوليات² الشنقيطية لاختبار/قياس درجة اهتمام كتاب الحوليات الشنقيطية، خلال القرن التاسع عشر الميلادي بموضوع الماء. جدير بالذكر هنا أن اختيارنا لتلك الحوليات نابع من كونها تشكل أبرز النصوص التاريخية التي كتبت بهذا البلد، خلال القرن التاسع عشر.

أما الهدف الثاني من هذا التحري المعرفي، فيستهدف البحث في محتوى ودلالة الإشارات المتناثرة في الحوليات الشنقيطية/الموريتانية عن الماء في المنطقة.

هناك هدف آخر لهذا المبحث يتعلق برصد وجمع بعض الروايات الشفوية المتعلقة بالثقافة المائية لمجتمع الدراسة. كما أن هناك إشكالية أخرى تتعلق بالبحث في تأثير التصورات الموروثة عن الماء على الواقع الراهن لهذا البلد.

1-1 مفردات الماء من خلال الحوليات الموريتانية

يتضح لمن يقرأ نصوص الحوليات الشنقيطية/الموريتانية، أن هذه الأخيرة تكاد تكون خالية من الحديث عن الماء. مع ذلك يمكننا أن نستخلص منها بعض المعطيات المتعلقة بموضوعنا.

تتطلب طبيعة الدراسة هنا، إخضاع النصوص المدروسة (الحوليات) لقراءة فاحصة تستهدف جرد وحصر المادة التاريخية المتعلقة بالماء داخل تلك الوثائق التاريخية.

¹ - جمال ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري: مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، الطبعة الأولى، 2005، ص ص 74 - 75.

² - تشكل الحوليات الشنقيطية/الموريتانية نمطا من أشكال التدوين التاريخي للأحداث. حيث دأب أمة المساجد بالمدن (القرى) التاريخية ببلاد شنقيط على تسجيل العديد من الحوادث التي شغلت اهتمامهم، معتمدين في ذلك منهجا يقوم على تسجيل الأحداث وفقا للتسلسل الزمني. ومما هو راجح أن أقدم نصوص هذا النمط من التدوين يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن الترتيب الذي سلكناه في سرد المادة التاريخية عن الماء في الحوليات، يعتمد التسلسل الوارد في تلك الحوليات، وسنشرع من هنا في سرد تلك المادة على النحو التالي:

أ - مفردات الماء الواردة في حوليات ولاته¹

- (وفي عام 1277² قدم أحمد طالب بن جدو والشيخ بن سيدي محمود فافسدوا فيها ومنعوها الماء.. فأرسل الله علينا سحابا شربنا منها فسبحان الله القادر على ما يشاء..)³.
- (وفي عام 1313 ضاع أكابر أهل ولاته بالعطش..).
- (وفي 1332 نزل الغيث الكبير في رمضان وسقط منه كثير من الديار ووقع فيه البسط الكبير وفيه تهدم مسجد ولاته الكبير من شدة المطر)⁴.
- (وفيه أيضا حفر أهل ولاته بئر.. وخرج منه الماء في شهرين)⁵.
- (وفي عام 1363.. امتلأ سد ولاته المعروف عندنا بالقليل و زال عنا العطش بعد أن عطشنا أعواما متتابعة..)⁶.

ب - الماء من خلال حوليات تشيت⁷

- (1283 ... فيه عطش رفقة من أهل تشيت.. وماتت فيه نفوس من العطش..)⁸.
- (وفي العام 1283... عطش رفقة من أهل تشيت في المنجاع الجوفي... مات فيه نفوس من العطش....)⁹.

ج- حصر مفردات الماء الواردة في حوليات تجكجه¹

- 1 - تقع مدينة ولاته في أقصى الشرق الموريتاني. تعود نشأة المدينة القديمة لولاته، حسب بعض المصادر، إلى بداية العصور الميلادية. وقد نالت هذه المدينة مكانتها و شهرتها. من كونها قد شكلت، خلال الفترة الوسيطة، محطة عبور لوجستي لقوافل التجارة الصحراوية التي ربطت آنذاك بين شمال وغرب القارة الإفريقية. هذا إلى جانب أنها قد شكلت مركز إشعاع ثقافي بالمنطقة خلال الفترة الحديثة. وقد تم تصنيف هذه المدينة ضمن التراث العالمي من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).
- 2- نشير هنا إلى أن كتاب الحوليات هنا يعتمدون التأريخ الهجري.
- 3 - الطالب أبو بكر بن أحمد المصطفى، حوليات ولاته، تحقيق سيدي عبد الله البخاري، بحث مكمل لنيل شهادة المتريز، قسم التاريخ/ جامعة انواكشوط، السنة الدراسية 1991-1992، ص 24.
- 4 - نفس المصدر ص 62.
- 5 - نفس المصدر و الصفحة.
- 6 - نفس المصدر، ص 63.
- 7 - تشكل تشيت إحدى المدن التاريخية المصنفة من طرف اليونسكو ضمن التراث العالمي للإنساني العالمي. تقع هذه (المدينة) القرية في وسط موريتانيا. ورغم المصاعب التي تحيط بتحديد تاريخ و هوية مؤسسيها، إلا أن هناك إجماعا بين المختصين على أنها قد شكلت- خلال نهاية الفترة الوسيطة- مركزا عمرانيا و ثقافيا بالمنطقة، ومحطة عبور لتجارة القوافل بين شمال و غرب القارة الإفريقية.
- 8- محمد بن عثمان، و الشريف بوعسريه، حوليات تشيت، تحقيق محمد ولد لمرباط، بحث مكمل لنيل شهادة المتريز من قسم التاريخ/ جامعة انواكشوط، السنة الدراسية 1991/1992، ص 74.
- 9 - نفس المصدر، ص 74.

- (..وعلى رأس العام 1206 وقعت أردانه³)
- (..وفي آخر عام 1213..وقعت أردانة خراب..)⁴
- (..وفي العام 1307..وقعت فيه أردانة التي خربت منها ديار أطار وشنقيط).
- (..وفي العام 1311..انهدمت القصور بالسحاب..)⁵
- **د- الماء من خلال حوليات آدرار⁶ والقبله⁷**
- (..وفي العام 1786، نزل المطر أياما فكان هذا عام أردانه الأولى..)⁸
- (وفي العام 1798...تهطل المطر الشتوي أياما بآدرار فكان عندهم عام أردانه ..غير أن مطر فصل الخريف كان قد غاب..فلم تصب الشرق والجنوب فكان عام جذب شديد شهير..)⁹
- (..وفي العام 1801..أصاب الغيث والخصب آدرار..)¹⁰
- (وفي العام 1892..مات خلق وعدد هائل من المواشي بسبب العطش..)¹¹
- (..وفي العام 1813 ..كان عام جذب فلم تأتي الأمطار في موسمها من الخريف ..وفي الشتاء نزل المطر بالقبله..)¹²
- (..وفي العام 1865..أصاب المطر تيرس فانتجعها أهل آدرار ..)¹³

1 - تشكل تجكة التاريخية إحدى القرى (المدن) الموريتانية التي مضى على تأسيسها عدة قرون. توجد هذه المدينة في وسط البلاد. وقد اشتهرت بكونها إحدى المدن التاريخية المشهود لها بالتأثير المعرفي على مستوى البلد.

2 - (أردانه) تعبير محلي يقصد به في اللهجة الرئيسية لموريتانيا المطر الخفيف الذي يستمر لعدة أيام.

3 - بعض أئمة مسجد تجكة، حوليات تجكة، تحقيق عائشة بنت ديدي، بحث مكمل لنيل شهادة المتريز من قسم التاريخ/ جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 1990/1989، ص21.

4 - نفس المصدر، ص23.

5 - نفس المصدر، ص 25.

6 - يقع الحيز الجغرافي المعروف بآدرار موريتانيا بشمال هذا البلد. وقد عرفت هذه المنطقة الاستيطان منذ أزمنة قديمة ومتلاحقة. ومن أبرز مدن هذا الحيز الجغرافي: مدينة شنقط، و وادان. من الجدير بالذكر هنا أيضا، أن مدينة شنقيط هي أقدم منطقة تعرف الكتابة بالبلد. وتتشترك مع ثلاث مدن موريتانية أخرى في كونها شكلت محطة عبور لقوافل التجارة الصحراوية، و في كونها مثلت مركزا ثقافيا ودينيا بالمنطقة، وفي تصنيفها من طرف اليونسكو ضمن التراث الإنساني العالمي.

7 - يقصد بمجال الكبله في موريتانيا منطقة الجنوب الغربي من هذا البلد. يطل هذا الحيز الجغرافي على المحيط الأطلسي ونهر السنغال. وقد شهدت هذه المنطقة ميلاد إحدى أقدم ما عرف بإمارات البيضان، وأكثرها غنى وسبقا في ميدان اكتساب سكانها اللغة العربية والثقافة الإسلامية بهذا القطر.

8 - بن مادي، جمال بن لكبيد، حوليات آدرار والقبله والساحل، نشر بن مادي جمال لكبيد، المطبعة الوطنية، نواكشوط، ص2019، 65.

9 - نفس المصدر، ص 38.

10 - نفسه، ص 38.

11 - نفسه، ص41.

12 - نفسه، ص41.

13 - نفسه، ص71.

- (..وفي العام 1878 ..أصاب الغيث تيرس...وتهطلت أمطار هائلة فشملت ما بين تيجريت و تازيازت فتيرس فأدرار..)¹.
- (.. وفي العام 1880 ..لم تصل الأمطار إلى آدرار في موسمها شتاء ولا خريفا..)².
- (.. وفي العام 1884..كان بآدرار وما حوله عام أردانه فقد تهطلت الأمطار متقطعة..)³.
- (..وفي العام 1885 ..كانت أمطار شتوية..)⁴.
- (..وفي العام 1886 ..لم يصب المطر آدرار خريفا ولا شتاء..)⁵.
- (..وفي العام 1889 ..تهطل مطر غزير باردا على آدرار و الأقاليم المجاورة وتواصل خمسة عشر يوما..)⁶.
- (..وفي العام 1893 لم تصل أمطار الخريف في موسمها إلى آدرار فلما كان آخرها هطل الغيث مدرارا أياما فخرّب كثير من الدور..)⁷.

2-1 نماذج من رؤى بعض فقهاء البلاد عن الماء

تجسد المقولات التالية نموذجا لتصورات و مواقف فقهاء مجتمع الدراسة من بعض استعمالات الماء خصوصا ما يتعلق منها بالجانب الصحي/ المرضى و الديني.

من الأمثلة التي تتضمن دلالة فائقة في هذا المجال فتوى لأحد أبرز فقهاء هذا القطر خلال القرن التاسع عشر الميلادي. يتعلق الأمر هنا بالفقيه عبد الله ابن أحمد ابن الحاج حماه لله⁸.

ولم يجز لأحد و عم
ضرر ماء صح عن تجريب

في الحوض مطلقا سوى التيمم
بخبر العــــــــــــــــالم والطبيب⁹

¹ - نفسه، ص 71.

2 - نفسه، ص 72.

3 - نفسه، ص 74.

4 - نفسه، ص 74.

5 - نفسه، ص 75.

6 - نفسه، ص 76.

7 - نفسه، ص 80.

8 - ولد الفقيه عبد الله بن الحاج حمى الله في قرية شنقيط بالشمال الموريتاني. و على الرغم من أنه قد ولد وترى في بيئة شبه حضرية، إلا أنه لم يعثر له على تاريخ الميلاد. من المرجح أنه ولد في القرن التاسع عشر. و قد أسندت أسرته مهمة تعليمه إلى إحدى كتاتيب تلك القرية/ شنقيط، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن و معارفه، و اللغة العربية و الشعر و الفقه..

و بعد أن أكتسب الكثير من معرف مدينة شنقيط، هاجر عبد الله إلى شرق البلاد/ موريتانيا باحثاً عن توسيع و تعميق معارفه، و عن شهرة قد لا يتحصل عليها بمجال ميلاده. عرف عن فقيهننا قدرته الباهرة على النظم، حيث نظم عدة كتب فقهية من أبرزها نص "الرسالة" لأبي زيد القيرواني.

9 - محمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المدني، القاهرة، 1989، ص 91.

66

أمام معضلة صمت الحوليات عن تقديم وصف لندرة المياه في مجالها الجغرافي، وتأثيرات تلك الندرة على صحة ونظافة ونشاط سكان المنطقة هنا، ينبغي لنا أن نحاول تقديم تفسير لأسباب ذاك السكوت.

سننطلق في تبيان فهمنا لصمت الحوليات عن علاقة الإنسان بالماء، من عدة فرضيات وأسباب محتملة لذلك الصمت.

في البداية نشير إلى أن أغلب نصوص الحوليات قد كتبت على نحو تبدو فيه كما لو أنها نشرات إخبارية ترصد حوادث المنطقة. إلى جانب ذلك ينبغي أن نعترف بتواضع المستوى المعرفي لبعض كتاب الحوليات، ومما يشهد على ذلك استخدامهم لبعض مفردات اللهجة المحلية (الحسانية) في كتابة الحوليات. وعليه يمكن القول بأن كتاب الحوليات لم تكن لديهم القدرة الذهنية على وعي وتمثل و استحضار المشكلات الرئيسية المتعلقة بمشكلات الحياة اليومية للناس هنا، ولهذا غاب موضوع الماء عن أذهانهم، كما غاب عنها العديد من مظاهر المعانات في هذه البلاد.

من الممكن والوارد أيضا أن يكون هذا الصمت ناتجا عن ما عاشه الإنسان هنا (بما في ذلك كتاب الحوليات) من اضطرابات أمنية ونفسية نتيجة واقع السبية التي ظلت ملازمة لحياة الناس. بعبارة أخرى نشير إلى أن النخبة (كتاب الحوليات) كانت منشغلة ذهنيا وعمليا بالحديث عن أخبار مناوشات القبائل وغارات النهب والسلب، أكثر من تركيزها على رصد و معالجة بقية مظاهر الحياة.

إلى جانب ذلك نجد أن التفكير المركز حول المعجزات (الكرامات) قد مثل النموذج الذهني السائد بالمنطقة آنذاك. إلى حد أن الانشغال بالكرامة لدى الأغلبية واعتبارها الأمل الوحيد قد أذهل الناس عن ما سواها. أكثر من ذلك نجد أن صاحب الكرامة (الصالح) هنا يبدو كما لو أنه طاهر و مطهر، أي أنه أمل و بديل عن الكثير من أمور الحياة بما في ذلك الماء! ولهذا فقد أهمل الحديث عن العديد من أوجه الحياة، بما في ذلك استعمالات الماء.

هناك سبب رئيسي آخر، حسب نظرنا، لعدم اهتمام كتاب الحوليات بعلاقة الناس بالماء، يعود إلى ما يعرف بالاغتراب المكاني. حيث نعتبر أن ذلك الصمت بمثابة علامة دالة وفائقة على عمق الاغتراب هنا، ومظهرا من أشكال الانفصال الذهني عن الواقع المعيشي للناس. و يبدو أن هذا الانفصال جعل تصورات الناس عن العديد من أمور الحياة متباينة عن ما لدى معظم شعوب العالم.

2- البعد العامي للثقافة المائية الموريتانية:

استكمالا لتقصي أبعاد إشكاليتنا البحثية، نقدم هنا رسدا لتجليات و أصول ما نلاحظه من وساوس/ مخاوف لدى غالبية المجتمع الموريتاني إزاء بعض استعمالات الماء. لهذا سنتجه في هذا المستوى من البحث إلى القيام ببعض التحريات المتعلقة بالثقافة المائية. مستهدفين بذلك تقديم إضاءة عن تصورات الشناقطة/ الموريتانيين عن بعض استعمالات الماء المتعلقة بالنظافة الشخصية.

ولأن المعطيات المقدمة في هذا الشأن، من قبل مدونتنا المصدرية شحيحة، فقد لجأنا في النهاية إلى الاستعانة ببعض الروايات الشفوية التي تحتفظ بها الذاكرة المحلية عن الظاهرة المدروسة.

2-1 تجليات لوساوس المجتمع الموريتاني من الماء.

تتجلى خشية جزء من المجتمع الموريتاني من بعض استعمالات الماء، من خلال عدة مظاهر نذكر منها الاعتقاد الراسخ بأن الاستحمام يعرض صاحبه للمرض. هناك وجه آخر لهذه الظاهرة يتجلى من خلال نفور البعض من الوضوء، واستبداله بالتيمم مخافة المرض. من الملاحظ كذلك أن هناك من يترخص على نحو متكرر لتكره الاغتسال: طهارة و نظافة خوفا من المرض.

كما يبدو جليا أن هناك خشية لدى جزء من المجتمع الموريتاني إزاء السباحة و الصيد سواء في المحيط أو النهر اللذين تطل عليهما البلاد. ويمكن النظر أيضا إلى حذر البعض من غسل الملابس خشية ملامسة الماء، بوصفه تجليا من تجليات الظاهرة المدروسة.

2-2 نماذج من المرويات الشعبية عن الماء

ولكي لا يتم فهم ما هو مبين أعلاه، بوصفه مجرد أحكام بلا إثباتات، سنقدم هنا بعض الأمثلة/ الروايات التي تكونت من خلالها تصورات الفئة المدروسة عن مخاطر استعمالات الماء في مجال النظافة الشخصية.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن استعانتنا بالرواية الشفوية تملأها عدة ضرورات من بينها تدوين/ إنقاذ بعض الحكايات الشفوية (التاريخية) عن الموضوع قبل اندثارها. هذا إلى جانب أن التدوين عن الماء يكاد يغيب في نصوصنا المدروسة.

تحتوي الثقافة الشعبية الشفاهية للموريتانيين على عدة مقولات تتضمن توجسا حادا من بعض استعمالات الماء. و سنكتفي هنا بتسجيل عينات من تلك المرويات.

و يأتي في مقدمة تلك المرويات التي تتعلق بموضوعنا هنا بيت من الشعر اللهجي (الحساني) هذا نصه:

- (كال القلشاني¹ حد خاف: من حم و لل نازله

جايز يتيمم هاك كاف: ناظملك هادي النازله). و معناه قال القلشاني أن من يخاف من الحمى و الزكام يجوز له التيمم بدل الوضوء و الاستحمام.

- (الما ضرار): يتلخص معنى هذه المقولة في أن الماء مضر بالصحة.

- (بات كد لا تبات تكد): و معناه نم و أنت في حالة ييبس، و لا تبت و أنت في حالة رطبة.

¹ - يحيل قائل هذا البيت الشعري اللهجي إلى الفقيه المالكي الشهير: عمر بن محمد القلشاني الباجي. و هو فقيه وطبيب عاش حياته بتونس خلال العهد الحفصي.

- (ساكيهم الماء أعقاب الليل): تتجسد الترجمة الحرفية لهذه المقولة في: سقايم الماء عقب ليل، بينما تتجلى دلالاتها الاجتماعية في إلحاق أشد مسببات المرض بمن يسقى الماء عقب ليل، سواء كان ضيفا أو غير ذلك.

-(الما يلكان ينفع شي ينفع لكرب): يتجسد منطوق ومقصود هذه الأمثلة العامية في القول بأنه لو كان للماء نفع لانتفعت به قرب الماء.

2-3 فرضيات حول المرتكز الذهني للخشية من الماء

يتبين من خلال هذه الروايات أن هناك صورة ثابتة لدى جزء من المجتمع الموريتاني، عن خطورة بعض استعمالات الماء في الحياة اليومية.

و سيبدو أن تلك الصورة أو التمثلات، قد تشكلت بفعل عدة عوامل، نعيد بعضها إلى رواسب الوسط البدوي المشكل لمجال التنشئة الاجتماعية هنا. كما نفترض أن لهذه الظاهرة علاقة بثقافة التقشف/ الزهد في الحياة، و عدم التباهي بصورها الجمالية. تلك الثقافة التي نعيدها إلى منابع التصوف الذي يخترق مختلف جهات المجال الموريتاني.

هذا إلى جانب اختلاف معايير الجمال و نموذج، و متطلبات الإثارة لدى الرجل و المرأة في البداوة الصحراوية الموريتانية- خلال الحقب الماضية- عن المعايير الموازية لها بالوسط الحضري في أغلب بلدان العالم.

هذا إلى جانب دور بعض القصص التي تحكي عن حالات أصيب فيها أشخاص بالمرض جراء بعض استعمالات الماء، دون أن يكون أصحابها قد أخذوا الاحترازا الضرورية لظروفهم الخاصة.

خاتمة

تتعد الاستنباطات التي يمكن أن نخلص إليها في نهاية هذا المقال. وسنكتفي منها بذكر ما يلي:

- استنتجنا أن كتابة الحوليات الشنقيطية/الموريتانية تجسد مظهرا و مرحلة من مراحل ضعف الوعي بالواقع من قبل نخبة البلد. وقد تبين ذلك من خلال عدة قرائن، من بينها قلة المادة التاريخية الواردة في حوليات البلد عن موضوع الماء.

- وجود شواهد تتضمن حكايات وتصورات و سلوكيات، تبين أن جزء من مجتمع الدراسة لديه بعض الوسواس/التخيلات المرضية تجاه بعض أوجه استعمالات الماء الشخصية. وهو أمر يمكن رده إلى الظروف الموضوعية التاريخية لهذا المجتمع. حيث كان يعيش في بيئة مكشوفة، وفي خيام مفتوحة خالية من جل اللوازم الحمائية، الأمر الذي جعل الإنسان هنا معرضا للإصابة ببعض الأمراض التي قد يتسبب فيها استعمال الماء. هذا إلى جانب مخاوفه من نفاذ الماء وسط صحراء جافة.

- كما يمكن القول أن قوة تمسك مجتمعنا ببعض موروثاته الثقافية، جعل هواجس الخشية من الماء تستمر في مرافقة نسبة كبيرة من أبنائه إلى يومنا هذا.
- ولعل أبرز ما يمكن أن نختم به هنا، هو الإلحاح على مطلب توالي القراءات الفاحصة لمشكلاتنا السوسيو تاريخية، والبحث عن حلول لها.

المصادر والمراجع:

العربية:

- 1 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، طبعة 1972.
- 2- الطالب أبو بكر بن أحمد المصطفى، حوليات ولاته، تحقيق سيدي عبد الله البخاري، بحث مكمل لنيل شهادة المتريز، قسم التاريخ/ جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 1991-1992.
- 3- المختار ولد حامدن، حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.
- 4- الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق: محمد ولد بابا، منشورات بيت الحكمة، تونس 1990.
- 5- أحمد محفوظ مناه، ميراث السببية، دراسة في تاريخ الثقافة السياسية ببلاد شنقيط، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 1994.
- 6- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة و الرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.
- 7- المختار ابن حامدن ، حياة موريتانيا.
- 8- بشيري محمد الولاتي، جغرافية موريتانيا، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 1993 .
- 9- بن مادي، جمال بن لكبيد، حوليات آدرار والقبلة والساحل، نشر بن مادي جمال لكبيد، المطبعة الوطنية، نواكشوط.
- 10- جمال ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري: مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، الطبعة الأولى، 2005.
- 11- محمد محمود محمد، و حسن كي، التراث المائي في موريتانيا، ضمن مؤلف جماعي بعنوان: التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط و المغرب العربي، المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي، برعاية اليونسكو، الطبعة الثانية، ص 38 (توجد نسخة الكترونية من هذا النص على النت).
- 12- محمد بن عثمان، و الشريف بوعسريه، حوليات تيشيت، تحقيق محمد ولد لمرايط، بحث مكمل لنيل شهادة المتريز من قسم التاريخ/ جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 1991/1992.
- 13- محمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المدني، القاهرة، 1989.
- 14 - محمد ولد الطلبة، ديوان محمد ولد الطلبة اليعقوبي الشنقيطي الموريتاني، شرح و تحقيق محمد عبد الله ابن الشبيه، مراجعة محمد سالم بن محمد علي بن عبد الودود، الناشر أحمد سالك بن محمد الأمين بن أبوه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- 15- محمد ولد الطلبة، ديوان محمد ولد الطلبة اليعقوبي الشنقيطي الموريتاني، شرح و تحقيق محمد عبد الله ابن الشبيه، مراجعة محمد سالم بن محمد علي بن عبد الودود، الناشر أحمد سالك بن محمد الأمين بن أبوه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- 16- محمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المدني، القاهرة، 1989.

- 17- محمد المامي الشيخ، كتاب البادية، (مخطوط)، توجد نسخة خطية من هذا الكتاب بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط.
- 18- بعض أئمة مسجد تجكجه، حوليات تجكجه، تحقيق عائشة بنت ديدي،..بحث مكمل لنيل شهادة المتريز من قسم التاريخ/ جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 1990/1989.
- 19- عبد الله العروي، من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2010 .
الأجنبية:

¹ - R.Vernet la Préhistoire de la Mauritanie introduction A la Mauritanie Edts CNTRs Paris 1979.

2- Mohamed salem / Merzog.Contribution a la Connaissance et la gestion des ressources hyriques, université de Tunis ,FSHS,Thèse d3eme cycle,1987,pp 68-99.

3- Ould chekh (Abdol wadoud) Nomadisme islam et pouvoir politique dans la société Maure précoloniale (XIX Siècle) Thèse pour le dictera en sociologie ; Paris V ; 1985 ;